

الموسيقى البيزنطية بين الماضي والحاضر

بقلم الأب مكاريوس هيدموس المخلصي

تتمتع الموسيقى البيزنطية بنظام ترتيلي وتدويني خاصّ ومتكامل، قديم العهد، يدخل ضمن نطاق الألحان الثمانية المعتمدة في الكنيسة البيزنطية. يتبعه مئات الآلاف من المؤمنين في شتى أنحاء العالم حتى اليوم، خصوصاً في لبنان وسوريا وفلسطين والأردن وقبرص واليونان وبعض دول أوروبا الشرقية مثل رومانيا، وحيثما وجد روم أورثوذكس أو روم كاثوليك في أوطانهم وأماكن انتشارهم خصوصاً في أميركا وكندا وأستراليا والبرازيل والمكسيك وإسبانيا...

تمتدّ جذور الموسيقى البيزنطية إلى القرون المسيحية الأولى، حيث رنّم المسيحيون مزامير داود بالأسلوب المعروف «بالتنغيم البسيط» (Psalmodie simple). ولكن ما لبثت أن تأثرت بالثقافة الأنطاكية واليونانية، فخرجت أناشيد الكنيسة من إطارها الضيق ولبست حلّة الأناقة والزخرفة فنشأت الترانيم الجديدة التي لا تمتّ بصلّة إلى مزامير داود، مثل: «أيّها النور البهي» (ترتل في صلاة الغروب)، و«المجدلة الكبرى» (ترتل في صلاة السحر) وهي تعود إلى أواخر القرن الثالث الميلادي.

ومن ثمّ ازدهرت طريقة الإنشاد بالتجاوب (Psalmodie responsoriale)، وأيضاً الإنشاد بالتناوب (ما بين جوقتين): (Psalmodie antiphonée).

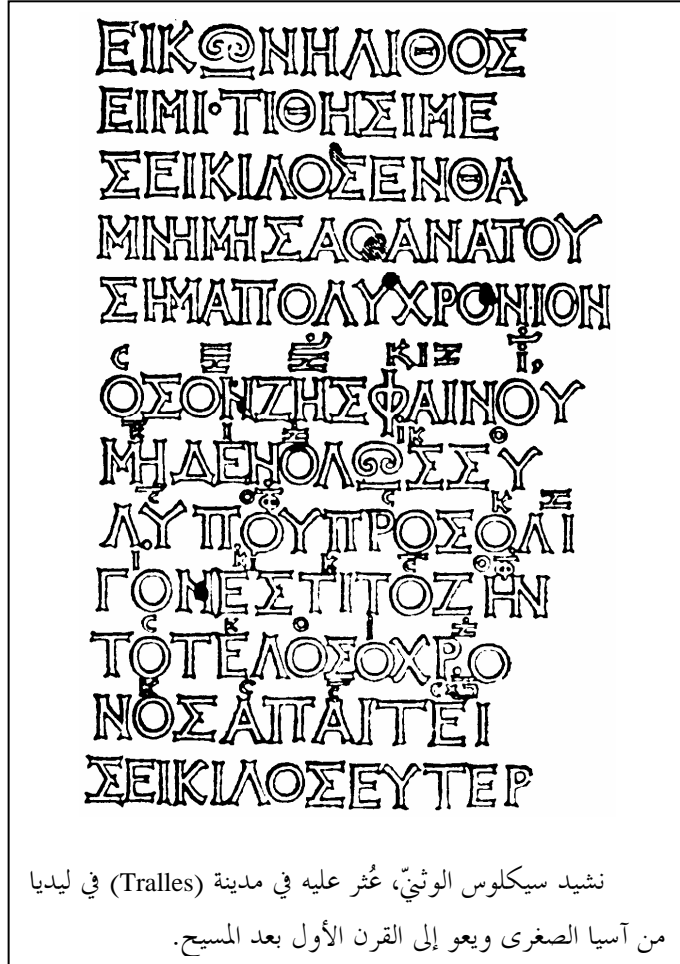
لن نتبحر في الأنماط والأطر التي يتبعها البيزنطيون في الإنشاد وهي كثيرة ومتنوعة، ولكن سنتوقف فقط عند ظاهرة التدوين الموسيقي الخاص، الذي ينعم به التراث البيزنطي، بقديمه وجديده، منذ نشأته وحتى اليوم.

التدوين الموسيقي

أول تدوين اتبعه المسيحيون الأولون كان عبارة عن أحرف وحركات ونقط وضعوها في كتب صلواتهم وتشير إلى نغمة أو عبارة موسيقية. وعُرفت هذه الكتابة بالنوطا (Nota). إلا أنّ النفوذ الثقافي اليوناني حملهم على استعمال العلامات الموسيقية اليونانية إلى جانب «النوطا». وكانت هذه على نوعين:

١- العلامات الآلية (Notation instrumentale): وعددها ١٥، وهي أشكال خاصة بآلات الطرب وهي مأخوذة من حروف أبجدية قديمة.

٢- العلامات الصوتية (Notation vocale): وعددها ٢٤ وهي الحروف الأبجدية اليونانية بعينها، تُستعمل بحسب ترتيبها الأبجديّ للدلالة على أبراج (Degré) السلم. ويُشار إلى الألحان بأحرف خصوصية تُرسم على الهامش.



أمّا أقدم شهادة على التنويط أو التدوين الموسيقيّ فهي أناشيد دلفي المنحوتة على الرخام وتعود إلى سنة ١٣٨ قبل المسيح.

٤ أنماط من الكتابة الموسيقية

١- الكتابة الأبجدية التي شاعت في القرون الثلاث الأولى كانت عاجزة عن تلبية المراد، فظهرت في أواخر القرن الرابع علامات جديدة أسموها العلامات الصوتية (Sémiographie Ekphonétique) أو المعقوفة بسبب شكلها، وأخذت تتطور حتى القرن الثامن الذي بلغت فيه كمالها، وقد جعلت لقراءة النصوص الكتابية (النبوءات والرسائل والأنجيل) قراءة احتفالية منعمة. وهي تتألف من عشرين

علامة بسيطة ومركّبة، مأخوذة عن حركات الكلام الصوتية (Accents). أمّا مصدرها فمجهول. وقد انتشرت انتشاراً واسعاً ودام استعمالها حتى القرن الخامس عشر، وعنها أخذت الكنيسة اللاتينية علاماتها الموسيقية الخاصة بها، والتي تدعى «غريغورية»، والتي أصبحت فيما بعد أساساً للنوطة الأوروبية الحالية.

Θζεία	∪ ∪ ∪ ∪
Συρματική	~ ~ ~ ~ ~
Βαρεία	∪ ∪
Κερτύματα ∴ ∴ ∴ ∴
Καθιστή	∪ ∪ ∪ ∪
Κρεμαστή ἀπέσω	✓ ✓
Κρεμαστή ἀπέζω	∪ ∪ ∪
Ἀπόστροφος	∪ ∪ ∪ ∪
Συμέμβα	∪ ∪ ∪
Υπόκρισις	∪ ∪ ∪ ∪ ∪ ∪
Τελεία	+ + + ∴
Παραελιτική	✓ ✓ ✓ ✓ ✓ ✓ ✓ ✓
Ἀπλάι βαρεία	∪ ∪ ∪ ∪
Ἀπλάι ὀζεία	∪ ∪ ∪ ∪
Ἀπόστροφοί	∪ ∪ ∪

لائحة العلامات الصوتية

إنجيل يوناني يحتوي على العلامات الصوتية، من القرن التاسع.

مخطوط لاتينيّ لأنديفونات القداَس يحتوي على علامات صوتية غريغورية (Notation adiastrématique) ويعود إلى القرن الحادي عشر.



مخطوط لاتينيّ يحتوي على علامات مربّعة غريغوريّة ويعود إلى القرن الرابع عشر.

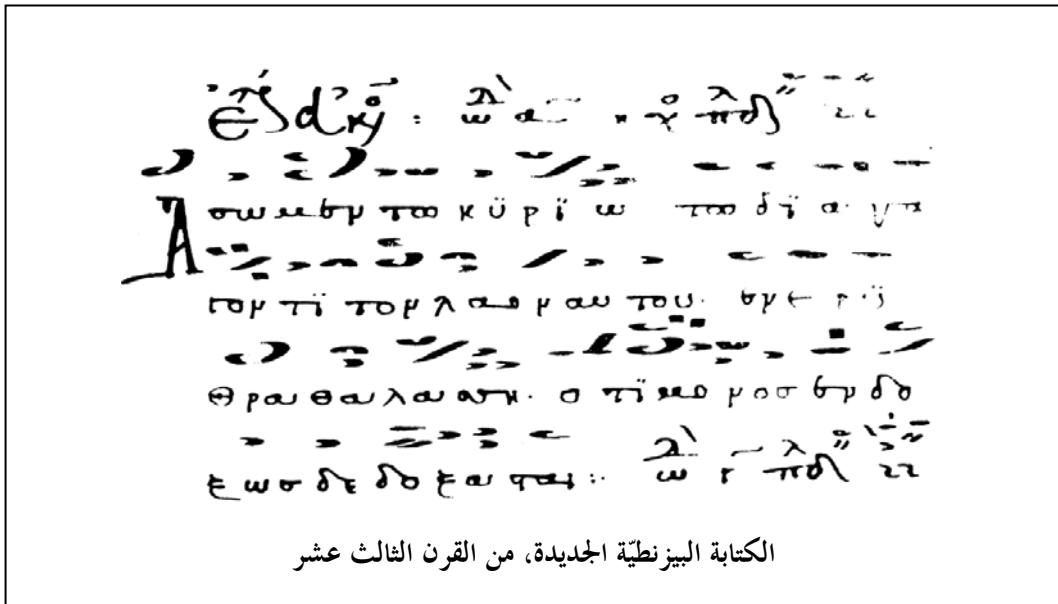
٢- كان لا بدّ من كتابة أكمل من «الكتابة الصوتيّة» (التي وقعت في الإهمال والنسيان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر)، تُحقّق مقتضيات الحركة الموسيقيّة الدينيّة وتواكب عصر الشعر الكنسيّ الذهبيّ، كتابة صالحة لتدوين أنغام الأناشيد بدقّة وحفظها للخلف.

لذلك نشأت في أحد الأوساط الرهبانيّة، كتابة جديدة، الكتابة البيزنطيّة الملقّبة بـ«القديمّة». وقد حاول واضعوها أن يعطوا لكلّ حركة من حركات الصوت البشريّ علامة خاصّة.

استُعملت هذه الكتابة ثلاثة قرون (من ١٠ " حتى ١٣ "). على أنّ هذه الخطوة التطويريّة لم تأتِ بالعرض المنشود.

الكتابة البيزنطيّة القديمّة، أواخر القرن العاشر

٣- تطوّرت «الكتابة البيزنطيّة القديمة» في أوائل القرن الثالث عشر، وأصبحت بمدلولها أكثر وضوحًا وكمالاً، وكثُر فيها استعمال المفاتيح وعلامات الوزن والتحويل وأصبحت علامات الكميّة الصوتيّة ١٢ (٨ للصعود و٤ للنزول). هذه هي «الكتابة البيزنطيّة الجديدة» (Sémiographie néobyzantine) (من القرن ١٣ " وحتى ١٦")، التي انضمت إليها الكتابة الأورشليميّة (من دير القديس سابا) وشكّلت معها ما يسمّى بـ«الكتابة المختلطة»، وأضافت إليها علامات جديدة فصارت ٢٤ علامة. وانقسمت إلى نوعين: علامات تدلّ الكميّة الصوتيّة (Signes de quantité)، وعلامات تدلّ على الكيفيّة الصوتيّة (Signes de qualité). بيد أنّ «الكتابة البيزنطيّة الجديدة» بقيت إجماليّة (Neumatique ou Synthétique)، أي أنّ كلّ علامة تشمل نغمات مختلفة، بعكس الكتابة الموسيقيّة التفصيليّة (Analytique) المعاصرة التي نجد فيها لكلّ نغمة علامة خاصّة محدودة.



٤- الكتابة المعاصرة (١٨١٥ - حتى اليوم): بدت الحاجة ملحة لاعتماد طريقة جديدة في كتابة النوطة البيزنطيّة، ولقد تمت على يد المصلحين الثلاثة الكبار: المطران خريسنثوس المديتيّ (أواخر القرن ١٨ " - ١٨٤٣) وغريغوريوس المرتّم الأوّل (١٧٧٧-١٨٢٢) وخرموزيوس أمين مخطوطات بطريكيّة الفنار (أواخر القرن ١٨ " - ١٨٤٠).

أمّا الفضل في وضع القواعد النظرية فيعود إلى خريسنثوس لسعة معارفه في الرياضيات والموسيقى. فهو الذي قسم السلم إلى ٦٨ جزءًا متساويًا وحدّد

الأبعاد بين النغمات (مثلاً: في السلم الذياتوني: البعد الكبير ١٢، المتوسط ٩، الصغير ٧).

كما سهّل البرلاج (Solfège) باستخدامه أسماء للنغمات مؤلفة من مقطع واحد، ووضع تمارين مناسبة للتدرّب على السلم والأبعاد والرائيم. جعل المصلحون الثلاثة عدد العلامات الموسيقيّة ٢٢ علامة، ١٠ للكميّة الصوتيّة، و١٢ للكيفيّة الصوتيّة. وغيروا بعض المفاتيح وعلامات التحويل وعلامات الرفع والخفض.

ونقلوا إلى الطريقة الجديدة مئات الأناشيد من روائع السلف، فخلصوها من النسيان والاندثار. وبفضل أسلوبهم المستحدّث السهل المنال، أتاحوا للمؤلّفين الموسيقيين أن يتحفوا المجموعات الموسيقيّة أنغاماً جديدة مستحبة.

جدول لتطور العلامات الموسيقيّة البيزنطيّة

اسمها	العلامات البيزنطيّة القديمة	العلامات العصرية العلامات البيزنطيّة الجديدة	أمثال ^١
1. 'Ισον	⋮ ⋮ ⋮ ⋮	⋮ ⋮ ⋮ ⋮	⋮ ⋮ ⋮ ⋮
2. 'Ολιγον	- - - -	- - - -	- - - -
3. 'Οξεϊα	/ / / /	/ / / /	/ / / /
4. Περασθή	✓ ✓ ✓ ✓	✓ ✓ ✓ ✓	✓ ✓ ✓ ✓
5. Κούφισμα	⋮ ⋮ ⋮	⋮ ⋮ ⋮	⋮ ⋮ ⋮
6. Πελαστόν	γ γ γ γ	γ γ γ γ	γ γ γ γ
7. Κεντήματα	•• •• :	•• •• "	•• •• "
8. Κέντημα	• • •	• • •	• • •
9. 'Υψηλή	⋮ ⋮ ⋮ ⋮	⋮ ⋮ ⋮ ⋮	⋮ ⋮ ⋮ ⋮
1. 'Απόστροφος	> > > >	> > > >	> > > >
2. Σύνδεσμοι	» » 7 3 3	» » 7 3 3	» » 7 3 3
3. 'Ελαφρόν	^ ^ ^ ^	^ ^ ^ ^	^ ^ ^ ^
4. 'Υπορόρη	⋮ ⋮	⋮ ⋮	⋮ ⋮
5. Χαμηλή	x x x x	x x x x	x x x x

(١) أمثال من كتابه بين العتيقة والحديثة

وإليك مثالان على الكتابة العصريّة سواء مع نصّ باللغة اليونانيّة أو باللغة العربيّة، مزموّر ١٤٠، من صلاة الغروب باللحن الأوّل، نمط متوسّط الطول:

Ἦχος α'. π_q

Κ υ ρ ι ε ε κ ε κ ρ α ξ α α π ρ ο ο ο ς σ ε ε ε ι
 σα κ ου σο ο ο ο ν μου ε ι σα α κ ου ου σο ο ν μου
 ου Κ υ υ υ ρ ι ι ι ι ε

يَا رَبُّ إِلَهِيكَ صَارَخْتُ فَاسْتَجِبْ
 مِمَّنِي إِسْتَمِعْنِي يَا
 رَبُّ يَا رَبُّ إِلَهِيكَ صَارَخْتُ

المراجع:

- 1- **Traité de Musique Byzantine**, Archimandrite Antoine HEBBY, Imprimerie Saint Paul, Harissa, 1964. (En arabe)
- 2- **The Parasimantiki of the Byzantine Music**, A Historical and Technical Review of the notation of the Byzantine Music from the First Christianity Years until Nowadays, K. A. PSACHOS, Dionysos Publishing Co, Athens, 1978. (En grec)
- 3- **L'Antica Melurgia Bizantina**, Lorenzo TARDO, Grottaferrata, 1938. (En italien)
- 4- **Storia della Musica, Il Medioevo I**, vol. 1, parte seconda, Giulio CATTIN, IV ristampa 1987, Torino. (En italien)